# 4 المسلون والغزو الأوروبي لإمبراطورية ساموري توري

يعتبر ساموري توري من الزعماء الأفارقة الذين لعبوا دورا هاما في القارة الأفريقية قبل الاستعمار الأوروبي لأنه يجسد البطولة والمقاومة ضد الغزاة الأوروبيين، ولأنه استمر في مقاومة الغزاة الأوروبيين حوالي سبعة عشر عاما بدءا من عام 1881 حتى القبض عليه عام 898 ا، وبعد أن كان قد أسس دولة إسلامية في منطقة أعالي النيجر[1].

ولقد تصادف قيام جهاد ساموري توري مع ظهور البحرية الفرنسية، واستكمال سلاح المشاة بشكل جعله فعالا وصالحا للحروب في المستعمرات، وصار هذا السلاح من أحدث وسائل الغزو التي استخدمتها الدول الأوروبية، ورغم أن ساموري شن حرب جهاد في المنطقة كالحاج عمر الفوتي التكروري وابنه أحمدو.

لقد كانت لديه القدرة على الرؤية بوضوح، والتجاوب بفاعلية مع الظروف المتغيرة، وكانت رسالته الكبرى في الحياة هي الدفاع عن إمبراطورية كانت إلى حد كبير نتيجة جهوده الشخصية، قامت من أجل نشر الدين الإسلامي في

غرب أفريقيا ولمواجهة التوسع الاستعماري، ومقاومة التوغل المسيحي في القارة [2].

وسوف نتتبع سيرة هذا الزعيم الأفريقي منذ نشأة دولته، وعلاقاته بالدول الأخرى، ثم أسس بناء دولته، والدور الذي قام به في مقاومة التوسع الفرنسي في المنطقة حتى القضاء عليه في عام 189.

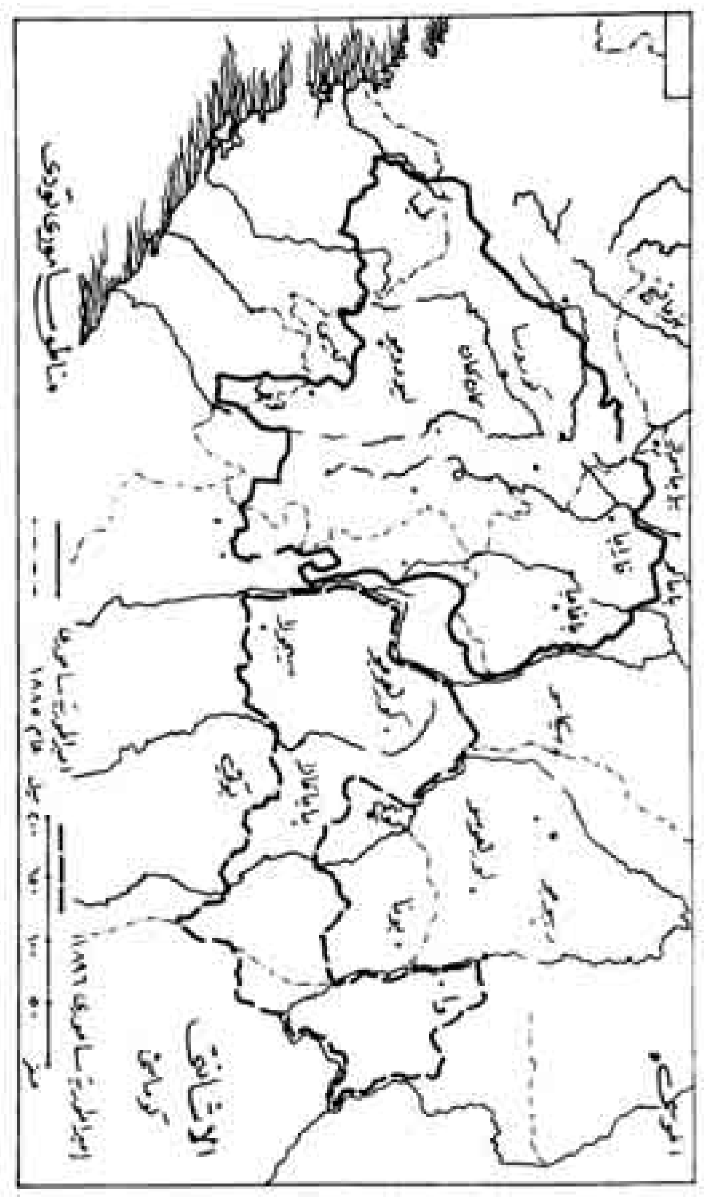
## أولا: نشأة ساموري وقيام الدولة

ولد الزعيم ساموري توري في عام 1835 في سانكورو بالقرب من بيساندوجو في غينيا الفرنسية، أي في وادي ميلو على الحد الشمالي لكونيا (Konya)، وهى منطقة من الأرض الجبلية والهضاب المرتفعة في شمال المرتفعات الغينية المشهورة [1].

وكان والده يعمل مزارعا ويربى الماشية بين شعب المالنكي من المسلمين، لكن تطبيق الشريعة الإسلامية لم يكن قويا إلا بين جماعات الديولا (Dyula) الذين كانوا يعملون بالتجارة. ورغم أن والده لافيا مزارع إلا أنه كان ينتمي إلى طبقة التجار المسلمين. وكانت جماعات التوري تعيش أصلا حول مدينة جنى في قلب إمبراطورية مالي الإسلامية. وفي القرن الخامس عشر حدّت إمبراطورية صنغي محل مالي فترك التوري مدينة جنى ومعهم أجداد لافيا إلى أعالي نهر النيجر[2].

وتزوج رجال التوري من بنات المالنكى المحليين، واستقروا فترة من الزمان للعمل في المزارع. وكان والد ساموري قد تزوج من امرأة تدعى ماسورونا، والتي تنتمي إلى عشيرة المالنكى المحلية، والتي أطلقت على نفسها الكامارا (Kamra). وكان ساموري هو النجل الأكبر للافيا وماسورونا. وهكذا نجد أن ساموري ينتمي إلى مجتمع الديولا التجاري، ولذا لم تختلف نشأة ساموري عن بقية أبناء الديولا، فلقد قضى السنوات الأولى من حياته في قرية والده. ولما بلغ سن السابعة ذهب للعيش مع خالته وزوجها على بعد عشرين ميلا في إحدى القرى المجاورة، وعاش هناك فترة يعمل في الزراعة وتربية الماشية وعاد ساموري بعد فترة إلى والده الذي انتهز فرصة وجود ابنه ساموري معه، وقام بتدريبه على أصول الزراعة والتجارة، لكن ساموري كان يفكر في حرفة أخرى بعيدا عن الزراعة، ولذا فإنه عندما بلغ سن الثامنة

عشرة طلب من والده السماح له بالعمل في التجارة مع الديولا [1].



شكل رقم (9)

أرسل لافيا ابنه ساموري إلى أحد أصدقائه الذي بدأ يدربه على تجارة السلاح والبارود، وأخذ ساموري يتكيف مع التجارة، وسافر إلى ساحل غرب أفريقيا في الماشية والكولا والعاج، بل وصل إلى فريتون لكي يجلب السلاح والرقيق كبقية تجار عصره. واشتهر ساموري بين تجار الديولا، وعرف أماكن الحصول على السلاح عندما بدأ يفكر في بناء إمبراطوريته[2].

وفي تلك المرحلة من حياته اعتنق ساموري الدين الإسلامي والتزم بتعاليم الدين الحنيف، وعرف الكثير عن الجهاد الإسلامي الذي دار في المناطق المجاورة، وممكن أن نقسم حياة هذا المجاهد العظيم إلى مراحل ثلاث. في المرحلة الأولى (1835- 1852) قضى ساموري وقته في الدراسة وممارسة حرفة التجارة، وخلال هذه الفترة أيضا سافر إلى مناطق كثيرة من السودان الغربي فازدادت مداركه، واتسعت معلوماته عن المنطقة المجاورة وصارت لديه خبرة بأحوال الناس وحرفهم.

وأما المرحلة الثانية فتبدأ في عام 1852 عندما حمل إليه أحد الأصدقاء أنباء تفيد أن قوات سوري بيراما ملك بيساندوجو قد أغارت على سانكورو، وعلم أن والدته ماسورونا قد أخذت أسيرة أثناء الحملة على وادي ميلو، وعند سماع الخبر أخذ يفكر في أفضل الطرائق لإنقاذ والدته من الأسر، وبعد تدبر وتفكر قرر الذهاب إلى الملك سوري بيراما ليعرض خدماته نحوه مقابل الإفراج عن والدته. وقبل الملك عرض ساموري على أن يعمل في جيشه مدة سبع سنوات.

وكانت هذه الفترة من أمتع فترات حياة ساموري حيث صار قائدا شعبيا، وتدرب على فن قيادة جماعات الإغارة على القبائل الأخرى، وتعلم كيف يتفاوض مع أعدائه بأسلوب دبلوماسي. وبعد فترة من الزمان أحس بضرورة الاستقلال عن سيده خصوصا عندما كوّن من أفراد عائلته نوابا له، فاضطر إلى الهرب في عام 1861، وترك كل ممتلكاته واتجه إلى جبال جيب. [1].

وتنتهي المرحلة الثانية في عام 1882 وفيها تكتمل شخصية هذا الزعيم بعد أن انشغل في أعمال ضخمة، وجمع حوله عددا كبيراً من الشباب الذين وجدوا فيه قائدا يمكن أن يجمع شملهم في دولة إسلامية مجاهدة ضد ما حولها من الوثنيين [2].

وأما المرحلة الأخيرة من حياته (1882- 1898) فهي مرحلة البناء والتوسع وبناء الدولة الإسلامية، ومقاومة التوسع الأوروبي الفرنسي الذي حاول القضاء على الإمبراطورية التي قضى حياته في بنائها. ولذا نجد أن هذه الفترة مليئة بالبطولات والأحداث الجسام في حياة هذا المجاهد الإسلامي في سبيل الدين والوطن ضد الغزو الأوروبي الذي يسعى لتدمير الحضارة الإسلامية تحت شعار إدخال الحضارة الأوروبية، وتمدين الأفارقة، وقبل أن يعلن ساموري توري عن قيام دولته كانت أحوال المسلمين في تلك المنطقة تتمثل في حملات الجهاد ضد الوثنيين. وفي مدينة كان كان (Kan Kan) بدأ أحد المرابطين ويدعى موري يولي سيس (Mori Ule Sise) الجهاد المقدس مع جماعات الماندنج (Manding) في فوتاجالون. ولما أحس موري يولي سيس أن مدينة كان كان غير مستعدة لأعمال الجهاد، قرر مع جماعة من رجاله إنشاء مجتمع جديد في الصحراء الواقعة بين كونيا وتورو (Toro)، وكان ذلك في أوائل الثلاثينات من القرن التاسع عشر، واستعان موري يولي بعدد كبير من صيادي الفيلة، كما استخدم عائدات العاج لشراء الفرسان والأسلحة. [1].

ولما أحس باكتمال قوته أعلن الجهاد المقدس عام 1835، وشن الحرب على المدن المجاورة، وكوّن أول مملكة إسلامية صغيرة في هذه المنطقة بعد انهيار الممالك الكبرى مثل مالي وصنغي. وكان موري يولي يسعى للقضاء على النظام القديم لجماعات الديولا، وفرض الزكاة على أتباعه، ووجد أهل كونيا أنفسهم تحت رحمة موري يولي، ولم يكن أمامهم سوى مقاومة هذا الرجل المتعصب، ووجدوا ضالتهم المنشودة في شخصية ساموري توري الذي كان قد ترك التجارة وتزوج إحدى بنات عائلات الكامارا (Kamara) الوثنية. وقد حدث ذلك في الوقت الذي ضعفت فيه جماعات ألبرت وزادت فيه قوة جماعات السيسي (Sise)، فعرض ساموري مهاراته على أعمامه من الكامارا فوافقوا على تعيينه رئيسا عليهم، وأعطوه كل الصلاحيات لتعبئة الجيوش وتدريب الرجال. وفي عام 1861 أقسم مع ستة من الأصدقاء على العمل على قيام دولة بالقرب من ميلو. وفي خلال عشرين عاما سيطروا على إمبراطورية تبلغ 800000 كيلومتر مربع، وتضم حوالي 300000 نسمة بما في ذلك أهم مناجم الذهب ني بيوري [2].

وبسرعة امتد نفوذ ساموري وذاع صيته في المنطقة الممتدة من ميلو حتى ديون (Dyon)، وأحس أعداؤه بقوة نفوذه عندما عقد صلحا مع السيسي وعاونهم على هزيمة جماعات ألبرت في عام 1865. ولما أحس بعجزه عن مواجهة جماعات السيري بريما (Sere Brema) فضل عدم الدخول معهم في مواجهة، وانسحب إلى أقاليم الغابات في توما (Toma) واستمر هناك حوالي عام كامل [1].

وفي عام 1870 عاد ساموري إلى الظهور من جديد لكن قواته كانت لا تزال أقل عددا من قوات أعدائه من السيسي، فنقل مقره إلى مدينة بيساندوجو (Bisanduga) في عام 1873، وأعلن العزم على حماية التجارة والطرق التجارية، فتعاطف التجار معه، ووقفوا إلى جانبه، وساعدوه على بناء إمبراطوريته الجديدة [2].

وفي عام 1874 بدأ ساموري الغزو التدريجي لكل القرى المجاورة لعاصمته. وفي العام التالي تحالف مع المسلمين في مدينة كان كان وبهذا استطاع أن يهزم جماعات السنكارا، ويتقدم نحو أعالي النيجر حيث ازدادت سيطرته على حافة فوتاجالون غربا وحتى بوري شمالا، وساعد ساموري سكان كان كان على التخلص من الحصار الوثني المضروب حولهم. وكان هذا التوسع حتى بورى قد أعطاه فرصة للسيطرة على حقول الذهب فأعانته على الحصول على الأموال اللازمة لبناء الجيش، وعاد في عام 1880 ليهاجم جماعات السيسي، ونجح في تحطيم كل القوى المنافسة له، وضم كل هذه الجماعات تحت سيطرته، وصار أكبر قائد لإمبراطورية إسلامية عرفها شعب المالنكي في الجنوب. وكان ساموري يفكر في مبدأ واحد يجمع شمل كل هذه المنطقة، ووجد أن تطبيق الشريعة الإسلامية هو أفضل السبل لحكم هذه الأقاليم من إمبراطوريته.

بعد القضاء على منافسيه من الوثنيين في كونيا العليا (Kanya) عام 1884قام الإمام ساموري بإلغاء النظام القديم للفاما [1]. واتخذ لنفسه لقب الإمام أو أمير المؤمنين، فبعد أن احتفل مع أهله في شهر رمضان جمعهم في 25 يوليه 1884، وأعلن أنه سوف يلقب نفسه من الآن بلقب الإمام، وأعلن عن أمله في أن يعتنق أهله ورعاياه الدين الإسلامي، وأن تكون أسرته قدوة في هذا المجال [2]. وفي نوفمبر من العام نفسه ألغى شرب الخمور

واستيرادها، ومنع كل العادات الوثنية وبدأ في تطبيق الشريعة الإسلامية [3].

تصادف قيام هذه الدولة الإسلامية مع خطط الفرنسيين للتوسع في السودان الغربي وهو الأمر الذي جعل من المحتم دخول هذا المجاهد الإسلامي-وهو يبنى أسس دولته على الشريعة الغراء-في صراع مع الفرنسيين، ذلك الصراع الذي سيقوض هذه الإمبراطورية الإسلامية، ولكن قبل أن ندخل في بدايات هذا الصراع وتلك المعارك الإسلامية الكبرى نجد من الضروري إعطاء فكرة عن جيش المسلمين الذي بناه هذا الإمام المسلم، وواجه به الأوروبيين حتى تكتمل صورة الجهاد المشرفة في تلك الفترة من حياة المسلمين أثناء وقوفهم أمام الغزو الأوروبي [4].

## ثانيا: نظام الجيش في إمبراطورية ساموري:

لقد كان الجيش أهم عنصر في دولة ساموري، وكان قوة ردعه الفعالة ضد الوثنيين وضد الأوروبيين على حد سواء. وكان ساموري يحصل على رجاله في البداية من المتطوعين لخدمته والانضمام إلى قضيته إلى جانب الأسرى الذين كان يعتقهم ويطلق عليهم لقب الصوفيين. وكان معظم الجيش من المشاة بالإضافة إلى عدد قليل من الفرسان [1].

نشأ جيش ساموري على نفس نمط جيش جماعات السيسي، ولقد ظل فترة طويلة يسير على نهجهم. فكان يجند الرجال من كل الفئات، ولكن كانت نواة هذا الجيش تضم جماعة من المخلصين والمؤيدين له، وقد اكتسب هذا الجيش طابعا قوميا متجانسا ضم مختلف قبائل الماندنج.

واختلف هذا الجيش عن جيش المالنكى القديم في أن رجاله لم يعودوا إلى قراهم بعد كل معركة، بل ارتبطوا جميعا بشعور عميق من الولاء والصداقة، وامتد هذا الشعور إلى القيادات والحكام الذين أحسوا بنوع من الولاء نحو هذا الشعب وجيشه.

وتكون الجيش أساسا من المشاة، وانضم إليه بعض جماعات الفرسان في عام 1881 أثناء حصار مدينة كان كان، وازداد عددهم أثناء الأزمة الكبرى في عام 1888، لكن ساموري قام بإلغاء نظام الفرسان وأحل محلهم فرق المشاة المجهزة بأحدث الأسلحة الأوروبية.

كان تجنيد الرجال يتم عن طريق انضمام أبناء القرى بواقع رجل من كل عشرة رجال من القادرين على حمل السلاح. ولم تكن فترة التجنيد محددة، بل يظل المجندون في الخدمة لحين إحلال آخرين محلهم من القرى. وفي حالة وقوع حروب واسعة النطاق فإن التجنيد يتم على أساس رجل من كل اثنين من القادرين على حمل السلاح حتى تنتهي الحرب. وكان رؤساء العائلات يعفون من هذا التكليف. وكان كل حاكم يقوم باختيار الرجال من مناطق نفوذه، ومن العبيد المدربين على الحرب، وأيضا من المتطوعين من القرى. وكان هذا الجيش ينقسم إلى عشر قيادات رئيسة تحت حكامهم[2].

وفي فترة السلم كان العدد الأكبر من المقاتلين يعود إلى وطنه للعمل في جمع المحاصيل، لكن كان هؤلاء يشكلون احتياطي الجيش الذي يذهب إلى الخدمة في أي ظرف طارئ، ولقد بلغ عدد قواته حوالي 500 محارب، لكنه ازداد بعد معركة فامادو (Famadu) عام 1873، وذلك بعد انضمام رجال الطرق الصوفية والأمراء المجاورين له.

وبلغ عدد سكان الإمبراطورية في عهد ساموري حوالي مليون ونصف مليون من السكان. وإذا قدرنا أن ربع هذا العدد كان قادرا على حمل السلاح فإن هذا يعني وجود احتياطي في كل مقاطعة يقدر بحوالي 3750 رجلا عند أول نداء. وبلغ عدد قوات الجيش عند أول حملة ضد الفرنسيين عام 1885 حوالي 1500 رجل تحت قيادة ثلاثة من الرجال هم مالنكي موري (Malinke Mori)، وفابوتوري (Fabu Toure)، ونيسكا مهدى (Nassikha Mahdi) بالإضافة إلى حوالي 5000 جندي من الاحتياطي تحت قيادة الإمام ساموري توري نفسه الذي كان يتولى القيادة العامة [1].

وباختصار بلغ عدد الجيش عند ساموري ما بين ثلاثة وثلاثين ألف وخمسة وثلاثين ألف جندي أثناء حرب السيكاسو (Sikasso) في عامي 1887 و1888. ولقد أولى ساموري الجيش عناية خاصة، وزوّده بأحدث الأسلحة الأوروبية المتطورة، وذلك من عائد مبيعات الذهب والعاج، أو من حصيلة الرقيق وأسرى الحروب. وكان الجيش عدة ساموري وعتاده سواء في زمن السلم أو الحرب، حيث ارتبط الجيش بالمشروعات التوسعية وبحياة الجهاد، وحياة البناء والعمران داخل الدولة، وأخيرا للدفاع عن الإمبراطورية ضد القوى الأوروبية [2].

وكان ساموري يحتفظ بقوات خاصة لحراسته. ويشير إلى ذلك الفرنسيون الذين ذهبوا لعقد اتفاق مع ساموري في عام 1886، حيث وجدوا أن حرسه الخاص كان يضم حوالي 500 رجل، بالإضافة إلى قوة أخيه مالنكي موري التي تضم حوالي 200 من الفرسان، وخلفهم خمس مجموعات تضم كل مجموعة مائتي رجل، وهذا جنبا إلى جنب مع القوات الاحتياطية التي كانت تشترك في الحملات الكبرى [1].

ولقد تغير نمط التجنيد لدى دولة ساموري بعد معركة عام 1892، حيث اتضح أن فكرة استدعاء القوات للعمل الحربي قد أصبحت فكرة غير عملية لأن المعارك الحديثة تستوجب الإبقاء على جيش دائم يكون أكثر ترابطا وتفاعلا وتجانسا، ولذا عمد الإمام ساموري في الفترة الأخيرة من حياة إمبراطوريته إلى الإبقاء على الجيش الدائم لمواجهة التهديدات المباشرة والمستمرة من القوات الفرنسية، ولم يعد ساموري يعتمد على الفلاحين في الخدمة العسكرية، بل اكتفى بالمجندين الدائمين الذين يدربون تدريبات خاصة [2].

وبعد هذا العرض لجيش ساموري نبدأ استعراض الحرب مع الفرنسيين.

## ثالثا: ساموري وبداية التهديد الفرنسي:

اعتمدت الاستراتيجية الفرنسية في غزو غرب أفريقيا والسودان الغربي على جهاز البحرية الذي أوكلت إليه مهمة حكم هذه المنطقة منذ عام 1880، ولذا بدأت العمليات العسكرية بشكل تدريجي، وكانت الحكومة الفرنسية تتحمل نفقات حملات التوسع في غرب أفريقيا، ولكن بعد عام 1885 أخذت تخفف من الاعتماد على موارد فرنسا الأم بعد أن قررت الحملات التوسع في إقليم السافانا والاتجاه من الغرب نحو نهر النيجر.

ولم يكن هدف الفرنسيين من التوجه نحو النيجر يعني الصراع أو الاحتكاك بدولة الإمام ساموري خلال الفترة من عام 1881 حتى عام 1883، وذلك لأن الفرنسيين لم يكونوا قد عرفوا الرجل بعد، وكانت أهدافهم قاصرة على إمبراطورية التوكولور [1]، وحدث أول احتكاك بين الإمام ساموري والفرنسيين بمحض الصدفة. ففي عام 1882 التقى ساموري بالضابط الفرنسي الكاميسا (Alakamessa) الذي وصل من مدينة كيتا (Kita) ليخبر

الإمام ساموري بالابتعاد عن منطقة كيني ران (Kenyeran)، وهي سوق ضخمة في وادي فاي (Fye). ونظرا لأن هذه المنطقة كانت الملاذ للهاربين من بطش ساموري، ولأنها في ذات الوقت تحمى قوات ساموري من جماعات البمبارا والماندنجو فإنه رفض الإذعان لمطالب الفرنسيين بل تحرك لحصارها في نوفمبر 1882.

وفي تلك الفترة كانت الحمى الصفراء منتشرة في السنغال، ولذا عجز الفرنسيون عن إرسال تعزيزات حربية للمنطقة، ولهذا صدرت الأوامر إلى القائد الفرنسي بورجنيس دسبورد (Borgnis Desborde) بعدم التوسع فيما وراء منطقة كيتا، وأن يرسل قوة صغيرة لتخفيف الحصار عن كيني ران)2((Kenyeran).

وعندما وصل هذا القائد الفرنسي إلى كيتا طلب من الإمام ساموري الانسحاب من كيني ران، لكن ساموري رفض هذه الأوامر للأسباب سالفة الذكر. وإزاء هذا الرفض قرر استخدام القوة فأرسل مائتين من المشاة ومعهم مجموعة من المدافع. وفاجأ هذا القائد ساموري في 22 فبراير 1882، لكنه اضطر إلى الانسحاب بكل حذر بعد أن خاض معركتين في منطقة ويناكو (Weyanko) قرب باموكو في الثاني من أبريل [1].

وحدث الاحتكاك الثاني مع الفرنسيين في عام 1883 بعد أن قاد أحد قواد ساموري حملة أدت إلى قطع خط التلغراف بين قلاع كيتا وباماكو. وفي الوقت نفسه أخذ ساموري عددا من الأسرى من قرى المناطق التي أعلن الفرنسيون الحملة عليها، وحدث الاشتباك بالقرب من باماكو، ونجح الفرنسيون في سلسلة من الأحداث أن يظهروا تفوقهم على رجال ساموري، لكنه حافظ على تقدمه. وبينما كان ساموري يحاصر مدينة ساجاديجي (Saghadyigi) في الجنوب كان أخوه قائد جيش الشمال يسعى لاحتلال باماكو إلا أن الفرنسيين وصلوا إلى المنطقة قبله، ولم يتمكن كيمى بريما الأخ الأصغر لساموري من الاتصال به. وبدأ الهجوم الإسلامي على الفرنسيين، ولكن رغم التفوق العددي للمسلمين إلا أنهم لم يستطيعوا تحقيق النصر المطلوب. وشهدت الشهور التالية بداية عمليات عسكرية أدّت إلى وقوف الإمام ساموري وجها لوجه مع قبائل التيبا (Tyeba) في سيكاسو، وجماعات الفاما (Faama) في كينى دوجو، وأدرك الإمام أنه لا

يستطيع التخلي عن المنطقة الغنية في بورى (Bure)، والتي يحصل منها على ضرائب كثيرة من الذهب منذ عام 1878، ولذا بنى استراتيجية على مجابهة الفرنسيين ومنعهم من السيطرة على المنطقة. ففي 27 مايو 1882 عبر ساموري بجيشه إلى تنكيسو (Tenkiso)، وأخذ يحطم ويدمّر القرى التي تساند الفرنسيين، ودخل ساموري في اشتباكات مع القائد الفرنسي بونارد (Bonnard) في 31 مايو، وذلك عند مدينة كومادو (Kommado). وكادت الهزيمة تحل بالفرنسيين لولا تدخل القائد لوفيل الذي أنقذ بونارد من موت محقق، وعاد بالقوات الفرنسية إلى نافادي (Nafadyi) حيث حاصرهم ياموري هناك وقطع عنهم كل الإمدادات، ولقن الصوفيون من جنود ساموري الفرنسيين دروسا صعبة في هذه الحملات [1].

وخلال تلك الاشتباكات حقق الفرنسيون بعض الانتصارات لكنهم لم يستطيعوا تحقيق النصر النهائي على ساموري الذي ارتفعت مكانته في نظر السكان المحليين [2]. وبالرغم من خطط الإمام ساموري ومناوراته الحربية الفائقة إلا أنه كان عاجزا أمام الأسلحة الأوروبية المتطورة التي حرمته من ثمار تحقيق نصر رجاله الشجعان على هذه الأسلحة المتطورة، واضطر إلى الاعتراف بتفوقهم بعد أن فقد حوالي 900 من رجاله أثناء الاشتباكات خلال الفترة من 31 مايو حتى 15 يونيه 1882، وأصيب عدد كبير من قياداته.

وتصادف في هذه الفترة الحرجة من حياة الإمبراطورية الإسلامية تزايد تهديد الجبهة الشرقية، ولذا فكر ساموري في إنهاء الصراع مع الفرنسيين حتى يتفرغ لهذا التهديد من ناحية الشرق، ذلك التهديد الذي يقوّض دعائم الإمبراطورية من أساسها، ولذا كان ساموري بين خيارين: إما أن يواصل القتال ضد الفرنسيين والجبهة الشرقية، وإما أن يهادن الفرنسيين حتى ينتهي من إخضاع تلك الجبهة المشتعلة، ووجد أن مهادنة الفرنسيين أمر اقتضته الظروف للحفاظ على كيان الدولة الإسلامية [3].

لكل هذه الأسباب أرسل الإمام ساموري رسله إلى الفرنسيين لكي يشرح لهم الركبة في فتح باب المفاوضات لأجل عقد اتفاقية سلام، وتحديد مناطق نفوذ كل من الطرفين. ولم يفهم الأعداء قراره في الحال لأن فصل الأمطار كان قد بدأ، وأغلق الفرنسيون حامياتهم في قلاع كيتا (Kita)

ونياجاسولا لحماية مناطق نفوذهم في سانجامبيا، وليمنعوا البريطانيين من عقد حلف مع الإمام ساموري. ورأى الكولونيل فري (Frey) أن من الأفضل التوصل إلى اتفاق مع عدو يطلب ذلك، خصوصا وأن الوسائل الدبلوماسية ضرورية في هذه الفترة، وكتب إلى تورنير يقول إنه يجب عدم إضاعة الوقت في قضايا جانبية، وإنه لا بد من الحصول على توقيع ساموري[1].

وفي المفاوضات التي دارت بين الطرفين أرسل الفرنسيون الكابتن بيروز ومعه من السنغاليين الكابتن مامادو راسين، والكابتن تورنير، والمترجم الأسان رايا. وكان الكولونيل فري هو الذي يوجه المفاوضات، وكان ساموري عنيدا في مطالبه [2].

وانتهت المفاوضات بتوقيع معاهدة في مدينة كنيابا كورا في 23 مارس 1887، ونصت المعاهدة على اعتراف ساموري بسيادة فرنسا ونفوذها على الضفة اليسرى لنهر النيجر من نيامينا Nyamina حتى تنكيسو Tinkisso، كذلك موافقة ساموري على التخلي عن المطالبة بحقوقه في مناجم الذهب في بوري والاعتراف باستيلاء الفرنسيين عليها، كما نصت على أن بقية الأراضي الواقعة على الضفة اليسرى للنيجر ستكون تحت سيطرة ساموري. وطبقا لهذه المعاهدة كان على ساموري أن ينسحب بقواته من هذه المناطق، وأعلن ساموري صراحة رفضه للاقتراح الفرنسي ولأي شكل من أشكال الحماية على دولته، وهو موضوع أحدث قلقا للفرنسيين الذين سعوا لإعادة التفاوض معه بعد عامين من هذا الاتفاق. ولقد اقترح فري على ساموري السماح لابنه بالسفر إلى باريس كعلامة لحسن النية [3].

ولما عادت البعثة الفرنسية رافقها ابن ساموري الذي ذهب إلى فرنسا حيث قضى شهرين زار خلالهما الرئيس الفرنسي، والقائد العام للقوات المسلحة الفرنسية، وأعجب ابن ساموري بذلك التفوق العسكري، وبتلك القوة الفرنسية، ولكن لم تدم علاقات الود طويلا حيث اعتبر الطرفان هذه المعاهدة بمثابة هدنة مؤقتة ريثما تسمح الظروف لكل منهما لكي ينقض على الآخر.

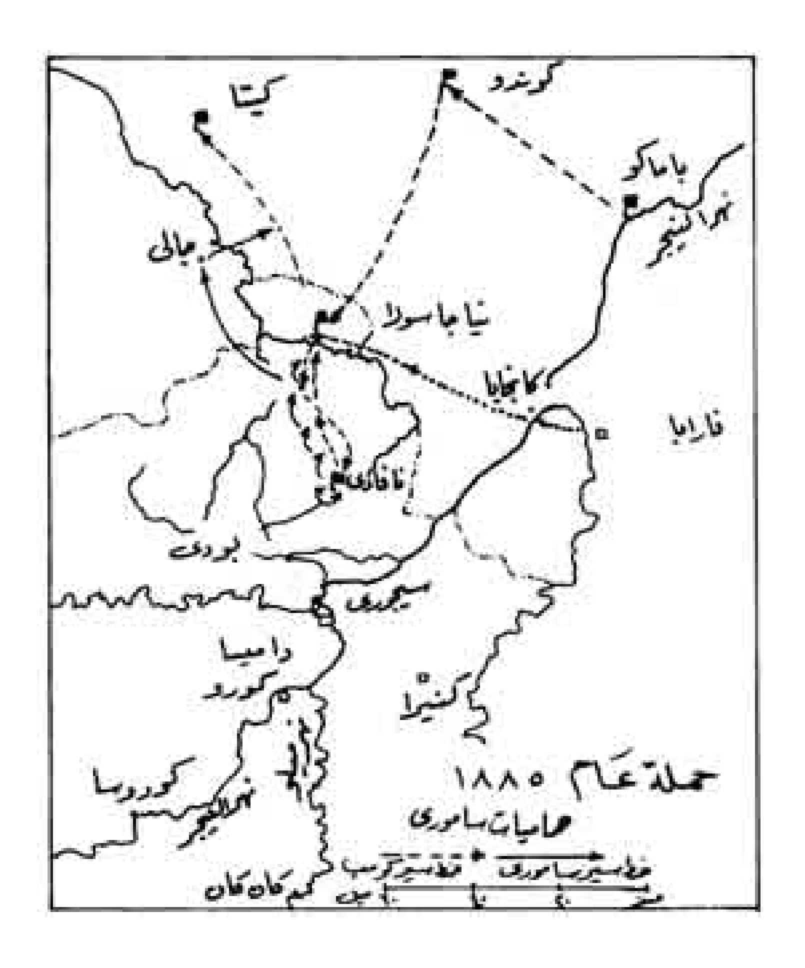
وأدرك زعماء فرنسا أن الاتفاقية غير مقبولة على أساس أنها أبقت لساموري بعض الحقوق على الشاطئ الغربي، ولكنها فشلت في اعتراف

ساموري بنظام الحماية الفرنسية، وبالتالي تركت المنطقة مفتوحة على مصراعيها أمام القوى الأوروبية الأخرى.

وأجرت فرنسا تعديلا مع ساموري في معاهدة بيساندونجو في 25 مارس 1887 نص على تنازله عن الشاطئ الأيسر مقابل تعهد الفرنسيين بعدم بناء حصون هناك، كما وافق ساموري على فكرة محمية فرنسية على أمل أن يحصل على دعم فرنسي لمواجهة سيكاسو التي قرر فعلا غزوها حتى لا يصبح محصورا بين قوتين متعارضتين، وحتى يكون امتداد النيجر الفسيح مفتوحا أمامه حتى حدود الموسي (Mossi). واعترف ساموري بحقوق فرنسا على الضفة اليسرى لنهر تنكيسو من منابعه حتى التقائه مع نهر النيجر. واعترف ساموري أيضا بنفوذ فرنسا على الضفة اليسرى لنهر تنكيسو حتى نيامينا، واضطر ساموري حسب هذه المعاهدة إلى الاعتراف بحقوق الفرنسيين في كل ممتلكاته شمال النيجر[1].

بعد المعاهدة بدأ ساموري يوجه اهتمامه نحو الشرق، أي في المناطق التي صارت تحت نفوذه حسب المعاهدة، وكان هدفه الرئيس الاستيلاء على مدينة سيكاسو الهامة. وفي هذا المجال ارتكب ساموري خطأ خطيرا لأن سيكاسو تحت سيطرة عدوه تيابا (Tieba)، وكانت مدينة محصنة تماما، لكن في أبريل عام 1887 بدأ ساموري الهجوم على سيكاسو، ووجد أن الأمر أعقد مما كان يعتقد، وأصعب مما كان يتوقع، ولذا استمر الحصار لهذه المدينة حتى أواخر أغسطس دون أن يحقق نتائج مرجوة، ورغم المعارك الدموية اضطر ساموري إلى رفع الحصار في النهاية دون أن يدرك كيف ينقذ جيشه بعد حصار استمر ستة عشر شهرا عانى فيها جيش ساموري بسبب صلابة مقاومة تيابا الذي كان يلقى الدعم والعون من الفرنسيين.

كانت هذه العملية من الحصار اختبارا لعلاقات ساموري مع الفرنسيين، فلقد كان ساموري يرغب في اقتحام سيكاسو ذات الأسوار العالية، وكان كل ما يطلبه من الفرنسيين مجرد مدفع واحد، لكن الفرنسيين رفضوا ذلك، بل وقفوا مع عدوه تيابا مما أجبر ساموري على رفع الحصار بعد أن تحمل أسوأ الخسائر في عملياته العسكرية، حيث إنه فقد حوالي سبعة آلاف رجل في هذه الحملة بمن فيهم أشهر قواده أمثال: فابو Fabou، ولاناكافالي ا(Lanakafali).


كيتا
باماكو
نهر النيجر
جالى
نياجاسولا
فارابا
كينيرا
داميسا
نهر النيجر
حملة عام ١٨٨٥

شكل رقم (١٥)

وأدرك الإمام ساموري أن الفرنسيين ليسوا أصدقاء له، وأنهم يهدفون إلى غزو كل حوض النيجر، ولذا فإنه بعد رفع الحصار أنهى المعاهدة مع الفرنسيين، وبدأ يسعى إلى البحث عن حلفاء من الأفارقة، فحاول عقد تحالف مع أجيبو (Aguibu) في دنجوراي، وهذا ما ساعده على الاقتراب من فوتاجالون، ومن المصانع الساحلية في سيراليون التي تزوده بالأسلحة [2]. وكان هدف ساموري هو أن يضم كينودوجو Kenedugu، لكي يسيطر على تجارة سيكاسو في الخيول، لكن فشل الإمام ساموري في القضاء على سيكاسو أفقده الأمل في بناء الإمبراطورية [1].

وكان الانسحاب ورفع الحصار قد شجعا رعاياه على الاحتجاج ضده، كما عارضوا مطالبه بالمزيد من الجند والمؤن، بل وصل الأمر إلى الاحتجاج ضد سياسته الإسلامية [2].

وفي أواخر عام 1888 فكر الفرنسيون في عملية السيطرة على الأراضي الواقعة تحت قبضة الإمام ساموري على أساس أنه أوشك على السقوط، لكنهم أساءوا التقدير لأن ساموري كان يمثل في نظر شعبه كل الآمال والطموحات، ومحرر كل أبناء المالنكي.

قامت فرنسا بتغيير القيادة، فحل القائد أرشينار (Archinard) محل جاليني في قيادة قوات السودان الغربي، وكان هذا القائد يتعجل الأحداث للاستفادة من المشكلات التي يواجهها ساموري، ولكي يبسط نفوذه على المناطق التابعة له، ويجبر ساموري على الدخول في النظام الاستعماري الفرنسي، وكانت خطة أرشينار تقوم على أساس أن إخضاع ساموري سيعطيه الحرية للهجوم على إمبراطورية التوكولور التي كانت هدفه الرئيس، وكان ساموري رغم توقيعه معاهدة بيساندوجو مع الفرنسيين يواصل تسليح جيشه بأحدث الأسلحة، ويدربه على أحدث المعدات، كما استمر في شن الغارات على المدن والقرى المجاورة.

وفي 21 فبراير 1889 ذهب الضابط الفرنسي بوناردوت إلى ساموري توري في عاصمته نياكو (Nyako) حيث حصل على معاهدة تنازل ساموري بموجبها عن الشاطئ الأيسر للنيجر حتى منبعه، وفهم ساموري أن الفرنسيين يشكون فيه، فرفض مغادرة عاصمته، فأعلن القائد الفرنسي جاليني أن ساموري رجل شرير، وأنه يضمر السوء للفرنسيين مثل بقية الزعماء في

السودان الغربي الذين يحدثون الدمار والخراب في المناطق التي يسيطرون عليها. وكرس جاليني في زيارته الثانية للمنطقة عامي 1887 و1888 وضع استراتيجية لحصار الإمام المناضل ساموري مع إضعاف سلطاته، وفي الوقت نفسه تدعيم النفوذ الفرنسي في حوض النيجر الأعلى [1].

أحس ساموري بخطط الفرنسيين، وتكتيكاتهم الحربية ضده، فبدأ يستعد للمعركة المرتقبة، واستعد شعب الديولا للمعركة الفاصلة بين قوى الحق، وقوى البغي والعدوان.

## رابعا: القضاء على دولة ساموري الإسلامية:

بعد الاحتكاكات الأولى مع الفرنسيين أدرك ساموري أنه لا بد من تغيير استراتيجيته، وأنه لا بد من إعادة تنظيم جيشه على أسس جديدة، وأصبح في نظره أن الإجراءات الدفاعية المعتادة داخل نقاط قوية وانتظار العدو غير كافية في ظروفه الراهنة، وذلك لأن مدفعية الرجل الأبيض تستطيع الصمود طويلا، كما أنها يمكن أن تقضي على أي تحصينات دفاعية، ولهذا كان قرار ساموري بالهجوم على العدو في الأراضي المكشوفة بعكس ما كان مألوفا من قبل.

قام الأمام ساموري بتجهيز جيشه وتزويده بأحدث الأسلحة التي يمكن الحصول عليها من أي مصدر متاح سواء من الساحل، أو من الأهالي، أو من التجار، أو حتى من البريطانيين، كما أنه درّب الجيش على النمط الأوروبي حتى وصل هذا الجيش إلى ذروة استعداده في عام 1890، وبدأ ساموري بالإغارة على القرى والمراكز التابعة للفرنسيين، كما أنه أرسل إلى السلطان أحمدو في بلاد التوكولور يطلب منه التحالف معه ضد هذا العدو الأوروبي. ولما أحس الفرنسيون بهذا التقارب بين زعماء المسلمين قرر أرشينار إرسال حملة إلى ساموري للاستيلاء على مدينة كان كان. وكان الفرنسيون قد استولوا على سيجو في مارس 1890، كما قرر أرشينار القضاء على ساموري قبل أن تصل أوامره إلى أخيه. وفعلا قام هذا القائد بالهجوم المفاجئ على النيجر الأعلى، واحتل كان كان في السابع من أبريل عام 1891، وأرسل أيضا فرقة لحرق مدينة بيساندوجو [1].

لم يكن الاستيلاء على كان كان يعني إنهاء مقاومة ساموري الذي هاجم

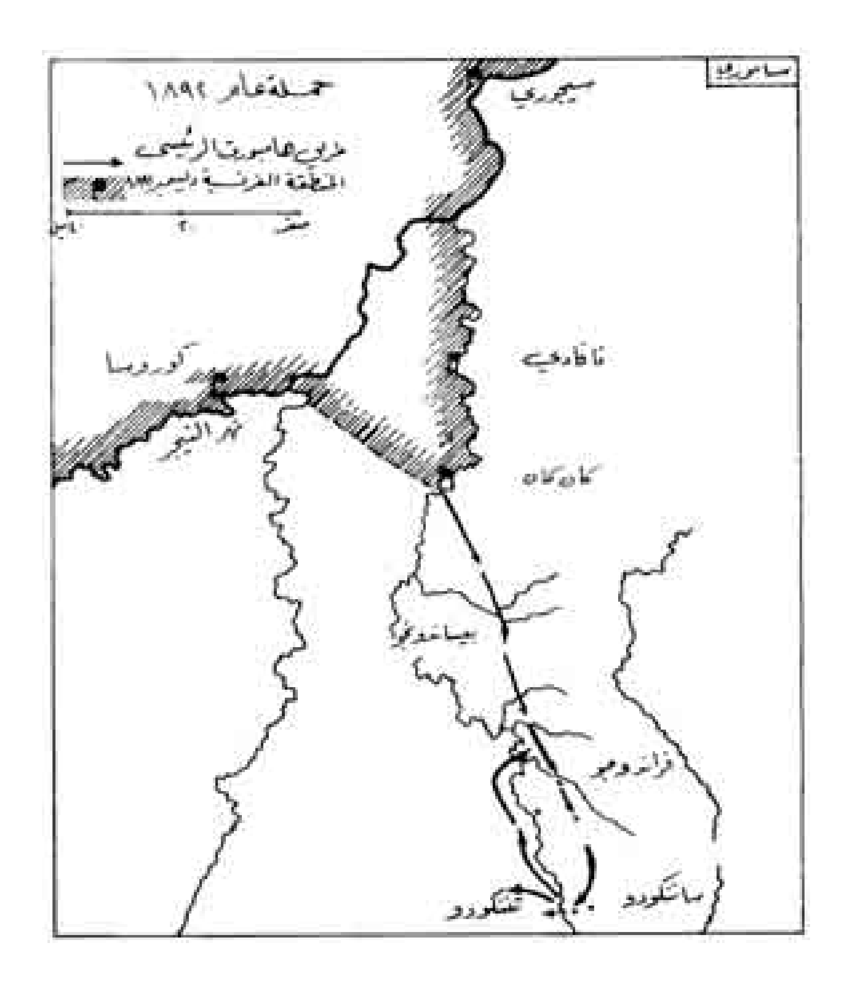
القرى المجاورة، وكلف ابنه بمهاجمة الفرنسيين، كما كلف عمه ألفا (Alfa) بالهجوم على القرى التابعة للفرنسيين. ولم تضعف هذه الهجمات قوى ساموري الذي كان يتوقع الهجوم في أي لحظة. وكان الموقف العام في صالحه حيث كانت حملات عامي 1981 و 1892 بداية مواجهة عنيفة بينه وبين الفرنسيين، ذلك لأن الاستيلاء على كان كان معناه ازدياد نفوذ فرنسا. وضعف الزعماء الوطنيين أمام القوات الفرنسية حيث أعلن القائد الوطني أجيبو الولاء للفرنسيين واستعداده لتلقي أوامرهم [2].

بدأ القائد الفرنسي جوستاف هامبورت الذي تولى القيادة بعد أرشينار الهجوم بقوة قوامها 1300 مقاتل و3000 من الحمالين. والتقت القوات الفرنسية مع القوات الإسلامية في ميلو (Milo). وكان ساموري يتولى القيادة بنفسه وحارب بكل شجاعة، وظهرت قدراته في هذه المعركة حيث كان التخطيط الحربي المتطور، والمهارات الفائقة التي عاقت التقدم الفرنسي كثيرا، لكن القائد الفرنسي هامبورت بفضل ما لديه من أسلحة متطورة استطاع أن يشق طريقه ويستولي على القلاع. وفي 14 فبراير استولى الفرنسيون على مخازن ذخيرة ساموري في أعالي تلال تننكورو (Tininkuru)، وصار الفرنسيون وسط إمبراطورية ساموري، ولكنهم وجدوا أنفسهم وسط الخراب والدمار والعزلة ذلك لأن الإمام ساموري أمر السكان المحليين بترك المناطق التي يقترب منها الفرنسيون مع أخذ كل المؤن والمواد الغذائية بعد تدمير القرى. واضطر الفرنسيون إزاء هذا الموقف إلى إقامة خط إمدادات من كان كان، بالإضافة إلى ما تكلفه هذه الرحلة من المشاق ذهابا وإيابا [1].

وانقضت عدة أسابيع والقائد الفرنسي هامبورت عاجز عن حل هذه المشكلة، وأخيرا قرر الانسحاب في التاسع من أبريل تاركا حصنه في حالة حصار استمر منعزلا عن العالم مدة سبعة أشهر، ولقد تضايق هامبورت من هذه الحالة، وقرر عدم وضع قدمه مرة أخرى في السودان الغربي، واعترف بهزيمته، ولكنه وضع مسؤولية هذه الأعمال على عاتق القائد أرشينار الذي عاد إلى المنطقة من جديد.

وصار من الواضح بعد هذه الاشتباكات أن الإمام ساموري أوشك على النهاية بعد أن فقد عددا كبيرا من رجاله الشجعان. وفي عام 1892 اتخذ قراره التاريخي بالانسحاب من مسرح الأحداث السياسية أمام الفرنسيين

الذين يكنون له كل عداء، فقرر الابتعاد عن سيطرة الأوروبيين حتى يعيد تشكيل قواته، ويضيف إليها دماء جديدة قادرة على مواجهة هذا الحشد الضخم من الفرنسيين (2).




شكل رقم (١١)

انسحب ساموري في هدوء من وجه الفرنسيين، وتركهم يواصلون تقدمهم، فاحتلت فرنسا كل الجزء الغربي من إمبراطورية الديولا (Dyula) حتى وصلوا إلى حدود سيراليون، وأطراف الغابة الكبرى، وبالتالي لم تكن هناك معارك حاسمة بعد تجنب ساموري الاحتكاك بالفرنسيين، وواصل تقدمه شرقا بعيدا عن المحاولات الفرنسية للتوغل داخل إمبراطوريته.

وفي عام 1893 فوجئ ساموري بمواجهة القوات الفرنسية بقيادة الكولونيل الفرنسي أيوجين بونير في منطقة كولوني (Koloni). وتحرك ساموري بسرعة إلى الجنوب الشرقي في اتجاه المناطق الداخلية لساحل العاج، وكان يحاول أيضا عدم الالتحام مع الفرنسيين، بل بذل جهدا لفتح باب التفاوض معهم لكي يحافظ على إمبراطوريته من هذا الزحف الأوروبي الذي عزم على تقسيم المنطقة حسب بنود ومواد مؤتمر برلين لعام 1884/1885 [(1)].

لقد فشلت كل محاولات ساموري في عقد صلح جديد مع الفرنسيين، ذلك لأنهم يرغبون في القضاء على الإمامة بشكل نهائي، والإمام ساموري يرغب في مواصلة الجهاد كقائد إسلامي في دولة إسلامية أسسها بجهوده الذاتية. ومن هنا جاء التناقض بين مطالب الفرنسيين الذين يخططون للسيطرة على المنطقة بأسرها، ورغبات الإمام ساموري في البقاء رئيسا لدولة إسلامية، ولذا ركز كل جهوده للسعي نحو عقد معاهدة سلام معهم حتى يتفرغ للجهاد والقضاء على الوثنيين. وكلما عرض الفرنسيون عليه فكرة الحماية كان دائما يرفضها لأن الحماية في نظره تعني الاستسلام وضياع ثمار جهاده الطويل. وكان دائما يقول للفرنسيين كلما طلبوا منه الحماية: إنهم إذا كانوا قد أغلقوا باب الجنوب أمام توسعاته، وأغلقوا باب الشمال والغرب أمام جهاده فإن باب الشرق ما زال مفتوحا، وأرض الله واسعة، وأنه سيواصل جهاده في سبيل الله [(2)].

ولما أحست فرنسا أن ساموري قائد حربي عنيد، وأنه يرفض كل عروض الحماية، بدأت تخطط لحملة جماعية بقصد الإطباق عليه من كل جانب، وقطع طرق مواصلاته، وإغلاق المنافذ التي يمكن أن يهرب منها، وذلك في محاولة أخيرة للقضاء على رجل رفض التعاون معهم وحاربهم في أكثر من موقع [(3)]. ورغم حرص ساموري على تجنب الاحتكاك بالفرنسيين إلا أن وجوده في السودان الغربي يعني عرقلة الفرنسيين في توسعاتهم لضم

المنطقة بأسرها.

ووجد ساموري نفسه في مواجهة أخيرة مع الفرنسيين، فأخذ يقاوم ويناضل بكل ما أوتي من قوة، وبكل ما لديه من أسلحة وذخيرة حتى استطاع الخروج من منطقة الخطر، وانتصر على الجماعات المحلية في أبرون (Abron) في يوليه عام 1895، ثم انتقل إلى جوندا (Gondja) الغربية في يناير 1896 [1].

وبدأت مرحلة من الهدوء النسبي طوال عام 1897 حيث استطاع ساموري تنظيم جيشه من جديد، والتقط أنفاسه استعدادا لمعركة المصير والتحرير مع عدو عنيد يصر على فرض الحماية بالقوة، ويلح في القضاء على دولة إسلامية تنشر حضارة الإسلام، وتطبق الشريعة في كل منحى من مناحي الحياة.

وفي أول مايو عام 1898 استولى الفرنسيون على سيكاسو فجأة. وعندما سمع ساموري بهذا النبأ أدرك أن خطته لن تجدي مع الفرنسيين، وأن مقاومته بتلك القوات البسيطة تعني الموت المحقق، فقرر الانضمام إلى حلفائه في بلاد التوما (Toma) الموجودين في ليبيريا، وكان الأمل يحدوه لا أن يجد موقعا حصينا هناك، لكن الفرنسيين كانوا يدركون عنصر الوقت، فتحركوا بسرعة لتعقب كل خطواته، وتحرك الإمام في اتجاه الغرب، وكان يحرق كل مدينة وكل قرية يجلو منها حتى لا يجد الفرنسيون أي مساعدات أو مؤن تساعدهم على مواصلة الحرب ضده. وكان كلما تحرك غربا واستولى على منطقة من المناطق يترك بعضا من رجاله للدفاع عن المناطق الجديدة، وهذه حيلة بارعة، ونظام حربي حديث أرهق الفرنسيين وكبدهم الكثير وهم يتعقبون هذا المجاهد العنيد الذي رفض الاستسلام مقابل السلام، ورفض الحماية مقابل البقاء سلطانا تابعا لهم [1].

وفي يونيو من العام نفسه انسحب من المناطق الشرقية، وركز كل جيشه مع حوالي اثني عشر ألفا من المدنيين على الساحل الضيق لبافنكو Bafinko، واستطاع في مواجهة مع الفرنسيين أن يكسب معركة كبيرة ضد القائد الفرنسي لارتيج (Lartigue)، وذلك في 20 يوليه، لكن ارتكب الإمام ساموري غلطة كبرى عندما قرر التحرك ناحية الغرب عبر الغابات الاستوائية وجبال الدان (Dan) في منتصف فصل الأمطار حيث واجه خطر المجاعة الكبرى،

مما أجبر القوات على الاختفاء في الليل بحثا عن لقمة عيش، فكان أن تفرقت هذه الجموع في وسط ظروف قاسية، ولم يعد العدد الأكبر منها.

كان هذا الخطأ قاتلا وفادحا كلف ساموري حياته، وكلفه ضياع دولته عندما قام القائد الفرنسي جورود (Gouraud) بالهجوم على قوات ساموري في منطقة جيليمو (Gelemu) في التاسع والعشرين من سبتمبر. ولقد طلب ساموري من القائد لارتيج أن يتركه لكي يعود إلى ساننكورو، لكن هذا القائد صمم على إذلال ساموري فطلب منه أن يسلم سلاحه وذخيرته وولديه (سرانكي موري، ومختاراً)، لكن البطل المجاهد ساموري رفض هذه الشروط القاسية التي تعد بمثابة إهانة لكرامته وشرفه وسمعته كقائد وزعيم سياسي، ورفض الاستسلام رغم ضياع كل شيء، ورغم تضييق الخناق عليه، وهذه طبيعة المقاومة الإسلامية في أفريقيا حيث رفض المجاهدون كل عروض الاستسلام، وفضلوا النضال حتى النهاية أمام عدو عنيد مسلح بأحدث الأسلحة يرغب في إذلال الأفارقة وحضارتهم. فكان قرار الصمود حتى النهاية والاستشهاد في سبيل كلمة الحق والدين [2].

وأخيرا قرر الفرنسيون مواصلة الحرب ضد هذا المجاهد ساموري حتى أمكن القضاء عليه بعد تضييق الخناق والقبض عليه في التاسع والعشرين من سبتمبر، وتم نقله إلى الجابون حيث مات هناك في 2 يوليه عام 1900 تاركا المقاومة لحفيده أحمدو سيكوتوري الذي صار رئيسا لجمهورية غينيا التي حصلت على استقلالها في عام 1958 قبل كل المستعمرات الفرنسية في غرب أفريقيا [1].

وهكذا انتهت حركة مقاومة استمرت أكثر من خمسة وعشرين عاما ضد القوى الإمبريالية، وانتهى كفاح هذا البطل الإفريقي المسلم، ذلك المجاهد الإسلامي الذي قاوم التوسع الفرنسي بقواته وسلاحه وعتاده، وصار ساموري بطلا قوميا استحق أن يخلد شعبه ذكراه بعد أن ضحى بكل شيء في سبيل توحيد شعب الماندنجو، وتكوين جيش يضم كل عناصر هذه القبائل، وقادها من نصر إلى نصر بعد أن وضع أسس دولة على أنقاض الممالك الوثنية، وواجه الغزو الفرنسي، وكبّده خسائر فادحة، ولم يهنأ الفرنسيون بالعيش في سلام في مناطق نفوذه إلا بالقضاء على مقاومته العنيفة حيث واجه الفرنسيون عدوا عنيدا، ومجاهدا صلبا، ورجلا لا تلين

عريكته، طوّر جيشه، وغير خططه، وأدخل الفنون الحديثة في القتال لمواجهة هذا التوسع الفرنسي.

لقد أثبت الزعيم ساموري أنه القائد الأفريقي التقليدي الذي احترم تقاليد وطنه وشعبه، وحافظ على الدين الإسلامي. وفي الوقت نفسه كان يطور نفسه حسب الظروف الحديثة، والمتطلبات الجديدة، واستطاع أن يطيل أمد فترة المقاومة التي ترجع أساسا إلى قدرته على الانسحاب الفعال إلى مناطق غير خاضعة لسيطرة الفرنسيين، وكذلك قدراته على المناورة العسكرية، واستخدام الأسلحة الحديثة التي كان يحصل عليها بشتى الطرائق.

وعندما أدرك ساموري أن الفرنسيين يرغبون في تكوين إمبراطورية تضم كل السودان الغربي قاوم بكل ما أوتي من قوة، وانتهج أفضل الوسائل الفعالة للمقاومة العسكرية، وأثبت أنه رجل مرن وقادر على استخدام كل الوسائل التي تحت تصرفه للحفاظ على حريته أمام السيطرة الأجنبية. وكان هدفه الأساسي من هذه الحرب هو الحفاظ على دولته في المقام الأول [1]. كان ساموري رجلا عبقريا، حاضر البديهة، وتكمن عظمته في عبقريته الاستراتيجية التي كشفت عن نفسها خلال خمسة وعشرين عاما من النضال والمواجهة ضد الأعداء، واستطاع أن يجمع شمل قبائل متناثرة، وعشائر متناحرة، وقوميات شتى، واستطاع أن يوحد كل هذه الجماعات تحت راية الإسلام، وكوّن أمة حديثة أخذت بكل أساليب التقدم والرخاء، وأقام مجتمعا إسلاميا، وطبق الشريعة الإسلامية بعد أن حوّل كل فئات الشعب إلى هذا الدين الحنيف، ولم يدخر وسعا في القضاء على الوثنية وعاداتها، ونظم شؤون المجتمع على أسس الشريعة الغراء.

لقد وقفت القوى الأوروبية ضد طموحات هذا المجاهد الإسلامي الكبير، ولسوء حظه وحظ شعبه أنه بدأ نضاله من أجل نشر العقيدة، وإخضاع القبائل الوثنية في الوقت نفسه الذي راحت القوى الاستعمارية تبسط نفوذها على القارة الأفريقية بعد قرارات التقسيم للقارة في مؤتمر برلين 1884/ 1885. وكان ظهور ساموري ودعوته للجهاد وتكوين إمبراطورية إسلامية قد تلازما وتواكبا مع التكالب الاستعماري على أفريقيا، وكان لابد من التصادم والصمود والكفاح في سبيل نصرة الدين والحضارة الإسلامية.

ولذا كانت الجماهير من عسكريين ومدنيين هي العمود الفقري لمقاومة هذا المناضل للاستعمار الفرنسي [2].

ومما يسترعى الانتباه أن أسلوب ساموري الحربي في تخريب المدن والقرى التي يهجرها قد ساعد على استمرار المقاومة فترة طويلة نجح خلالها في مقاومة الفرنسيين وتكبيدهم خسائر طائلة. وكانت أهم خاصية تميزت بها إمبراطورية ساموري أنها إمبراطورية متحركة حيث كان ساموري يتحرك بها من مكان لآخر بعيدا عن التوسع الفرنسي. وكان كلما انسحب أمام الفرنسيين حرص على تدمير كل شيء حتى لا يستفيد منه الأعداء[1].

اشتهر ساموري بأنه مناضل أفريقي مسلم حارب الفرنسيين مدة طويلة تجلت فيها عبقريته وقدرته على الحصول على السلاح والذخائر، وقدراته على اختيار الأماكن الاستراتيجية، وقدرته على التحرك، وتنظيم الرجال بسرعة كبيرة أتاحت له سرعة الحركة ومفاجأة الأعداء في كل مكان [2].

لقد كتب الجنرال باراتيه (Baratier) أن ساموري أظهر تفوقا على كل زعماء السود في القارة الأفريقية حيث كان الوحيد الذي أعطى الدليل على صفات الزعيم، وحيث كان سياسيا محنكا، وقائدا يمتلك الطاقة والقدرة على وضع الخطط الحربية التي يصعب تدميرها، وأنه إذا فقد جزءا من الأرض في الغرب فإنه لم يغادر الموقع إلا بعد أن يكبد الفرنسيين خسائر فادحة، وكان يعوّض خسارته في الغرب بالاستيلاء على أجزاء مضاعفة من الشرق، وهذه استراتيجية كبرى لقائد مسلم رفض الاستسلام بسهولة[3].

وامتاز ساموري بالمهارة العسكرية حيث كانت لديه القدرة الفائقة على التنظيم والقيادة حتى أطلق عليه قائد فرنسي بأنه بونابرت السودان. ولم يكن ساموري عبقرية عسكرية فحسب، بل كان أيضا دبلوماسيا بارعا، يتضح ذلك من علاقاته بالحكام الأفارقة الآخرين وبالسلطات الفرنسية في الفترة السابقة على قدوم الكولونيل أرشينار. وكان ساموري يسعى من التحالف مع الشيخ أحمدو إلى التكاتف ضد عدو مشترك، ولإبعاد الخطر الأوروبي عن التدخل في حوض النيجر الأعلى.

لكن الذي أثر في خطط الإمام ساموري الحربية يكمن في قلة السلاح والفرسان، ذلك لأن جيش ساموري كان أساسا من رجال الساحل ومن الفرسان القادمين من الجزء الشمالي الغربي من السودان، ورغم أنه بدأ

منذ عام 1892 بإنتاج الأسلحة الوطنية إلا أن تقدم الفرنسيين قطع على ساموري خط الإمداد بالقوى البشرية من الساحل مما اضطره في عام 1893 إلى البحث عن وسائل جديدة ومصادر أخرى، وكان شغله الشاغل منذ 1893 حتى عام 1898 هو البحث عن مناطق جديدة في ساحل العاج، وساحل الذهب وفي ولايات الموسي (Mossi). ومن سوء حظ هذا المناضل الأفريقي المسلم أنه بدأ بتكوين دولته في فترة من الفوضى السياسية في منطقة أعالي النيجر.

وقضى الجزء الأكبر في بناء الإمبراطورية، وما إن استقر وبدأ يمارس الحياة في تلك الإمبراطورية الجديدة، وأخذ يطبق الشريعة الإسلامية في سلسلة من حملات الجهاد حتى فوجئ قبل أن يصل إلى مرحلة الكمال بتلك الغزوة الاستعمارية الشرسة التي وجدت في إمبراطوريته عائقا ومانعا عن تحقيق حلمها في التوسع بممتلكاتها شرقا بعرض القارة حتى ساحل أفريقيا الشرقي في منطقة جيبوتي، وصار هذا القائد المسلم والإمبراطورية التي أسسها حاجزا مانعا ضد طموحات الفرنسيين. وحاول الابتعاد عنهم لكنهم وجدوا فيه خصما عنيدا ومناضلا جسورا وعبقرية أفريقية لا تلين. عرضوا عليه الحماية فرفضها، وعرضوا عليه الانضمام إلى نفوذهم فأبى وقاوم. وإذا كان قد هزم في النهاية إلا أن ذلك لا يرجع إلى قصور في العمل أو تراجع عن المبادئ، ولكن السبب الرئيس يكمن في قلة الموارد وضعف الإمكانات. وعدم التنسيق على المستوى المحلي بين زعماء المسلمين الذين انشغلوا بصراعاتهم الداخلية مع بعضهم البعض، بل تحالف البعض الآخر مع الفرنسيين، فكان هذا في حد ذاته كافيا لتقويض دعائم هذه الإمبراطوريات الإسلامية.

ويكفي هذا المناضل الأفريقي أنه استطاع أن يحكم منطقة واسعة من السودان الغربي، ولم ينشر الدين الإسلامي فحسب بين الشعوب الأفريقية، بل غرس في نفوس الناس روح العداء ومقاومة التوسع الأجنبي، وولّد في نفوس الشعب روح التضحية والفداء حتى رحل المستعمر عن أفريقيا.